

الفصل السابع

العلاج بالإبر الصينية

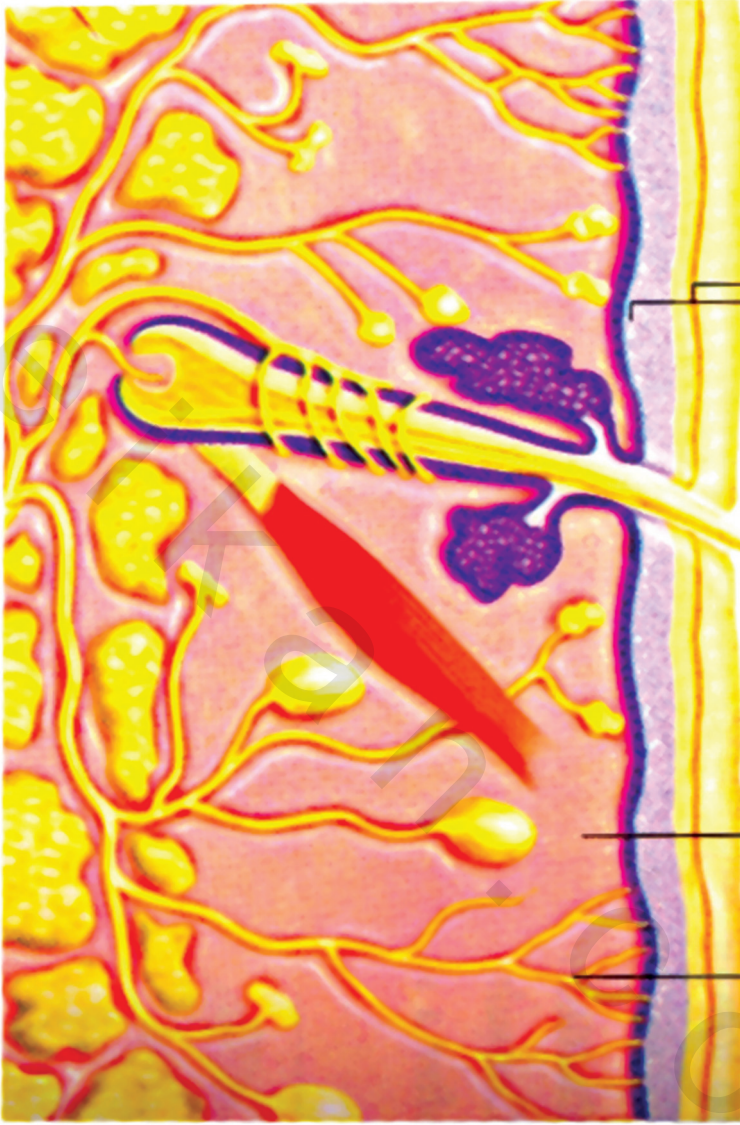
تقوم فلسفة الطب الصيني في استخدام الإبر الصينية للعلاج على اقتناع الحكماء الصينيين القدماء بوجود قوة حيوية خفية، هذه القوة هي أساس الحياة للكائنات جميعا وتساعدهم على النمو وتكون المصدر الأساسى الوحيد للطاقة اللازمة لحياة الكائنات على وجه الأرض، ويعتقد حكماء الطب الصيني أن هناك قوتين تنبثقان من هذه القوة الحيوية، القوة الأولى ويطلق عليها يانج Yang وهى القوة الموجبة التى يعتقد أنها توجد أساسا أثناء النهار فى طاقة الشمس، والأخرى سالبة وتظهر ليلا فى نور القمر وتسمى ين (Yin) هذه الفلسفة الازدواجية تلخص عمل الطاقتين اليانج والين فى العمل على تدفق الطاقة الحيوية اللازمة لحياة الإنسان والموجودة داخل الجسم البشرى Vital Energy وعند حدوث خلل فى إحدى هاتين القوتين أو كليتهما، فإن ذلك يؤدي إلى الإصابة بالمرض وهو ما يسمى فى الطب الصيني بحالة الاختلال أو عدم الاتزان فى الطاقة. هذا الاختلال الحيوى الموتر سلبيا على طاقة الإنسان يتم تعديله وعلاجه عن طريق اتباع أسلوب الوخز بالإبر الصينية، والذى صمم أساسا لإعادة الثبات الفسيولوجى والانسجام الداخلى والعمل على تثبيت حالة الاتزان الطبيعية لجسم الإنسان.

بدأ انتشار العلاج بالوخز بالإبر الصينية فى ربوع مملكة الصين القديمة قبل الميلاد بخمسة قرون، وكما تشير الوثائق المدونة فى المكتبات التاريخية فإن المصادفة وحدها كانت سبب اكتشاف هذا النوع من العلاج. ففى أحد الأيام أصيب جندى يسهم نافذ فى صدره وبعد علاجه لاحظ الجندى أن بعض الأمراض التى كان يعانيتها قبل الإصابة

قد اختفت تماما كما لاحظ أن بعض المناطق على سطح جسمه قد انعدم فيه الإحساس بالألم رغم بعدها عن مكان الإصابة الأصلى وقد صرح هذا الجندى بملاحظات لفريق الأطباء المعالجين له فى ذلك الوقت ، والتقط الأطباء الصينيون القدامى هذا الخيط وأبدوا اهتماما خاصا لهذه الظاهرة وبدءوا يجرون مئات بل آلاف التجارب اليومية ، والتى أوضحت أن إصابة الجندى فى هذه المنطقة بالذات من جسمه قد خفضت الألم فى باقى أجزاء الجسم ، كما لاحظوا أيضا وجود دلالات كثيرة على وجود علاقة بين مرض عضوى ومرض معين بالجسم ووجود ألم فى نقطة معينة أخرى على سطح الجلد ، ومن هذا استوحى فكرة علاج عضو بالجسم بنقطة على سطح الجلد ترتبط به وليست موجودة بالعضو نفسه . وبدأت تجاربهم المثيرة تثمر عن اكتشافهم لشبكة معقدة وغزيرة من الخطوط والنقاط السطحية والعميقة ، والتى تغطى معظم أنحاء الجسم ثم قاموا بعد ذلك بتوثيق ورسم أشكال توضيحية عديدة تقوم بوصل هذه النقاط والمسارات ببعضها البعض وهى أشبه ما تكون بالجهاز العصبى الذى تم اكتشافه بجسم الإنسان حديثا عن طريق أبحاث الطب الغربى ولقد ثبت فى عام ١٩٦٥ ، ومن خلال أبحاث مكثفة فى مجال الكهروفسىولوجيا والفسيولوجيا العصبية ، أن ما اكتشفه الصينيون من مسارات للطاقة داخل الجسم منذ آلاف السنين ما هو إلا تكوينة الألياف الدقيقة فى الأعصاب ، والتى ثبت حديثا أنها المسئولة عن نقل نبضات الألم من سطح الجلد إلى الجهاز المركزى للإحساس بالألم فى المخ والعكس ، وثبت أيضا أن للإبر الصينية تأثيرا مثبتا على الألياف العصبية الكبيرة المسئولة عن منع مرور الإحساس بالألم من خلال الخلايا العصبية ، وبالتالي إلى الجهاز المركزى للإحساس بالمخ ، وكما سبق أن تكلمنا فى فصل سابق عن نظريات بوابات الألم فقد تبين أن وخز نقاط معينة بهذه الإبر يؤدى بالتبعية لغلغ بوابات الجهاز العصبى وهو الأمر الذى يؤدى لوقف سيل النبضات العصبية من وإلى بعض المراكز بالمخ البشرى .

القواعد الفلسفية للوخز بالإبر الصينية

كانت الازدواجية فى نظريات الطب القديمة غير معروفة قبل اكتشاف حكماء الصين القديمة لها ، وقبل استنباط نظريات الازدواجية فى الطب الصينى كان الحكماء



تعتمد قدرة الإبر الصينية على علاج الأمراض في الوصول إلى الطبقات العميقة تحت الجلد
والتأثير على الأعصاب الحسية كما هو مبين بالشكل

الصينيون القدامى يؤمنون فقط بنظرية العقيدة التاوية (Taoism) الخاصة بالحياة، والتي اعتبرت أن الإنسان يعد جزءاً حياً مكماً لكون حي، وتبنى هذا التفكير الفلسفى مبدأ عدم وضع أى فواصل محددة بين الواقع المادى وغير المادى أو بين الطبيعى وغير الطبيعى، ولذلك كان يوجد مبدأ أساسى متمثل فى القوة المتوازنة لمجال كونه تتغير فيه بصفة مستمرة وإلى ما لا نهاية قوتا الين واليانج، ولإعطاء أمثلة على ذلك فإن الضوء يمكن أن يأخذ شكل الظل والشخص السليم الصحيح يصبح مريضاً ويتحول الموجب إلى سالب تحت ظروف معينة، فإن تلك القوتين الحيويتين - كما نرى إذن - تتبادلان العمل بلا توقف، وهما جزءان متفتحان على بعضهما لغرض شىء واحد متكامل وهو طاقة الحياة، وطبقاً لتلك الفكرة الفلسفية الصينية فإن الحياة والصحة لأى كائن حي تعتمد على التدفق الحر لتلك القوى وللتوازن الصحيح للين واليانج، فإذا ما اضطرب ذلك التوازن - كما قلنا قبل ذلك - فسوف يصبح الكائن الحى مريضاً ويجب على المعالج إذن محاولة استعادة توازن الجسم والتدفق الحر للطاقة. وبالرغم من أن القوة الحيوية تنتشر فى كل خلية ونسيج حى داخل جسم الإنسان إلا أن هناك دورة منتظمة للقوة الحيوية لها حدود ومسارات داخل الجسم وقد تتبع العلماء الصينيون مسار ذلك التدفق الدائرى على سطح الجلد وقاموا برسم خرائط عديدة لذلك التدفق، وانحصرت هذه المسارات فى عدة قنوات محددة سميت بمسارات الطاقة (Meridians) وترتبط مباشرة بالنقاط المحددة، والتي بدورها تتصل بالأعضاء المختلفة للجسم وتنظم عمل وظائفها الحيوية. ولكل نقطة من تلك النقاط منطقة محددة ومقيسة بدقة ووضوح ولها طريقة خاصة للتأثير. وقد تم التأكد من وجود تلك الاتصالات التى تربط ما بين تلك النقاط والأعضاء الداخلية للجسم عن طريق التجارب التى لا يمكن حصرها، وأيضاً بتراكم الخبرات التى نمت بطرق عديدة من الأطباء الصينيين القدماء، والتى تم التثبت والتحقيق منها فى عصرنا الحديث بواسطة المراكز البحثية المتخصصة وعلى مستوى دولى عالٍ.

وبالرغم من أننا من تأثير الفلسفة التاوية على منظومة العلاج الوخزى بالإبر الصينية فإن القائمين على هذه المنظومة لم يهملوا فى التركيز على الأعراض المنطقية والمتطورة للجسم، ليس فقط فى الماضى بل أيضاً فى المستقبل؛ إذ إن الاعتماد على استخدام تلك

الوخزة الثاقبة للإبر الصينية أكسب هذا الفرع الصيني أرضية صلبة انتشرت بسرعة ملحوظة في مختلف أنحاء العالم خلال العشرين سنة الماضية حيث إن كل شخص درس هذا النظام العلاجي أو ارتبط به بطريقة ما اعتقد أنه قادر على شفاء وإزالة أمراض كثيرة عجز الطب الغربي الحديث على علاجها . مما أكسب هذه المنظومة العلاجية شهرة في علاج الأمراض ليس فقط في بلاد الصين ، بل أيضا في دول مجاورة لها مثل اليابان وكوريا ، كما أدخل في فرنسا منذ القرن السابع عشر وأصبح يمارس بصورة منتشرة في النصف الثاني من القرن الـ ٢٠ في الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وألمانيا والنمسا وسويسرا ومصر والهند وغيرها من الدول ، وذلك بواسطة أطباء درسوا ذلك النظام العلاجي وتخصصوا فيه .

وبالرغم من ذلك الانتشار فإن الكثير من الأطباء في وقتنا الحاضر لا يزالوا يريدون تفسيراً شاملاً عن كيفية عمل ذلك النظام العلاجي الصيني ، كما أنهم يلحون في وضع أساس علمي منهجي كما هو في وسائل العلاج الحديث لطريقة الوخز بالإبر ، ويعتقد البعض منهم أن هذا النوع من العلاج يعد نوعاً من فن السحر وليس علماً ، والجدير بالذكر أنه منذ بدء هذا الأسلوب العلاجي في العصور القديمة فإن الأطباء الصينيين ركزوا كل انتباههم في أبحاثهم العلاجية ، ليس على المرضى كما نفعل نحن في طبنا الحديث بل على الطريقة الخاصة التي يمرض بها أى شخص ؛ إذ إنهم يعتقدون أن لكل شخص طريقة خاصة يمرض بها ، ولذلك فهم يبنون أسس طريقتهم العلاجية على علاج الشخص والمرض معا ، ويربطون أهمية كبيرة لما يطلق عليه اسم الحالات النفسية وتصرفات العقل تجاه المرضى . وقد شرح الدكتور «فليكس مان» أحد علماء الطب الحديث في الإبر الصينية بأنهما تعبيران لا ينفصلان عن بعضهما البعض ، بل يكونان شيئاً واحداً ؛ مما يعنى أن الأساس الذى يبنى عليه المعالج بالوخز بالإبر يعتمد على اعتبار أن الأعراض العضوية والعقلية للمريض تُعتبر ذات أهمية متساوية وتعتمدان على بعضهما البعض بطريقة لا يمكن تجاهلها ، وإنهما في الحقيقة تعتبران بمثابة وجهين لعملة واحدة ، وبعبارة أخرى ؛ فإنه يجب على المعالج بالإبر الصينية العمل على الوصول لما وراء المؤثرات الفيزيائية والعقلية التى أحدثت اختلال التوافق الجسدى ، كما يعنى ذلك أن التشخيص والعلاج متقاربان جدا بحيث إذا ما تم تحديد التشخيص

فيكون على المعالج فقط تحويله إلى مصطلحات مختلفة للتأكد من سبل العلاج بدقة، والعكس صحيح فإنه على الجانب الآخر إذا ما تم إيجاد العلاج فيتم التعرف على التشخيص المرتبط بهذا العلاج، وإذا لم يكن ممارس العلاج بالوخز بالإبر الصينية على درجة وافية من الخبرات المؤهلة لهذا النوع من العلاج فإنه يقع في فشل ذريع يرتبط باستخدام هذا الأسلوب؛ وذلك ما يحدث في أحيان كثيرة لغير المتخصصين الذين لا يملكون الخبرات الكافية لفلسفة العلاج بالإبر الصينية؛ لأنه إذا لم تتم طريقة العلاج بالأسس الصحيحة لهذه المنظومة العلاجية فإنه لن ينتج عن ذلك ترك المريض للعلاج فقط بل سوف تسبب له ضرراً جسيماً آخر بسبب الوخز الخاطئ؛ أو بمعنى آخر فإن الطبيب أو المعالج غير المؤهل لاستخدام طريقة الوخز بالإبر الصينية يمكن أن يشكل خطراً على المريض أكثر من أي ممارس آخر، وبمعنى آخر فإن ذلك النظام العلاجي قد يكون مضرًا مثل أي فن شفائي طبي آخر إذا لم يطبق بطريقة طبية صحيحة، ولذلك تقوم المعاهد المتخصصة في التدريب ودراسة العلاج بالإبر الصينية بإعطاء الخبرات العملية الكافية أكثر من النظام الطبي التقليدي، كما تركز على المعرفة الكاملة والتامة لنظريات التشريح والفسولوجيا الأساسية لجسم الإنسان قبل أن يبدأ أي معالج في ممارسة ذلك العلاج التخصصي.

دراسة أسس الوخز بالإبر الصينية الحديثة

بعد توصل العالم الصيني «كيم يونهاونزر» في عام ١٩٦٤ إلى وجود قنوات ونقط خاصة بالوخز بالإبر الصينية، وهو الاكتشاف الذي أحدث ثورة في أسلوب العلاج وإزالة وتخفيف الألم، وانعكست نتائجه المؤهلة في ذلك الوقت في شكل ردود فعل عالمية واسعة النطاق ساعدت الطبيب الفرنسي «بولنجيه» في تطوير ودراسة العلاج عن طريق الوخز بالإبر وأفرد دراسات متعمقة لطرق العلاج بالوخز في الأذن، ثم تابع عمله بعد ذلك الطبيب الألماني (وول) في أبحاث عديدة عن علاقة مسارات الطاقة ونقط العلاج بالإبر الصينية والجهاز العصبي للإنسان، والتي أصبحت أبحاثه تدرس حالياً في الصين وأوروبا، وقد اعترفت منظمة الصحة العالمية رسمياً بالإبر الصينية

كأسلوب علاجي هادف وفعال بحلول عام ١٩٧٩ وتم عقد أول مؤتمر علاجي لهذا الأسلوب العلاجي في الصين في نفس العام، ثم توالى المؤتمرات العالمية لدراسته وتعميمه في شتى أنحاء العالم. وقد بدأ العلاج بالإبر الصينية في مصر عام ١٩٧١ كأول دولة عربية تستخدم هذا العلاج ثم تلتها ليبيا عام ١٩٨٣ ثم تلا انتشاره في دول الخليج العربي.

وسائل الوخز بالإبر الصينية

استخدم علماء الصين القدامى إبراً ذات مقاسات مختلفة تبدأ أصغرها من نصف بوصة وتتألف من أربعة أجزاء هي اليد والجزع والجسم والرأس ومن خامات متنوعة كالخشب والحجر وعظام الحيوانات ثم تطورت صناعتها لتصنع من معدن الذهب والفضة والبرونز الذي لا يصدأ، وقد توصل العالم الفرنسي «بولنوجي» من خلال دراساته على وسائل الوخز بالإبر أن لكل نوع إبرة تأثيراً مختلفاً في العلاج، وأن من أفضل الإبر الصينية في العلاج هي الإبر المصنوعة من معدن الذهب، وقامت مجموعة أخرى من العلماء في التسعينيات بإجراء تجارب على بعض الحيوانات مثل الأرانب كشفت أن الوخز بالإبر يؤدي إلى اتساع الأوعية الدموية بظهر وصدر هذه الحيوانات، كما يؤدي لحدوث اتساع مماثل في الأوعية الدموية للأمعاء وقد تبين أيضاً أنه عند حدوث انقباضات في الأوعية الدموية في أماكن معينة في ظهر الفأر يؤدي بدوره إلى انقباض الأوعية الدموية للمخ، وكذلك لاحظ الباحثون أن الوخز بالإبر في بعض المناطق بالجسم يؤدي إلى زيادة كرات الدم البيضاء وإفراز بعض كيماويات الدم التي تزيد من مناعة الجسم للفيروسات والميكروبات؛ أي تعتبر بمثابة محفز لتكوين الجسم لمضاد حيوي طبيعي داخلي. وقد أصبح من المعروف أن سطح الجلد يعكس تأثيراً ظاهراً وواضحاً لحالة أعضاء الجسم الداخلية على شكل إحساس بالألم عند ضغط أو لمس هذه المنطقة من الجلد أو في شكل انقباض عضلي أو تنبسط الأوعية الدموية أو تنقبض، ويمكن تفسير ذلك طبيًا بما يسمى بنظرية رد الفعل اللا إرادي من العضو إلى السطح مثل ما يحدث في حالة جلطة الشريان التاجي لبعض المرضى حيث يظهر الألم الشديد في الكتف الأيسر. ويطلق على نقاط الجلد التي تظهر ما يحدث بالأعضاء